إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الأولى ـ العدد الثانى ـ صيف ١٣٩٠ش / حزيران ٢٠١١م

اللغة العربية؛ مكانتها وقضاياها اللغوية

حمزة أحمد عثمان*

الملخص

إن اللغة مرآة حال الأمة وسجلّ مفاخرها والشاهد على مجدها فى المجالات الاجتماعية والأدبية والسياسية والإدارية، تعزّ بعزة أمتها وتذلّ بذلتها.إنها أداة التفاهم والتعاون والتعايش بين الشعوب، وإنّ الدول الراقية تحاول بكلّ ما فى وسعها لنشر لغاتها وتقويتها بين الشعوب. نتحدث فى هذه المقالة عن مكانة اللغة عند أصحابها، وأهمية اللغة العربية من حيث التناسب بين اللفظ والمعنى واتساعها. وعن النظريات المختلفة حول نشأة اللغة، وهل أنها تواطؤ واصطلاح بين البشر أم توقيف أى وحى وإلهام، ونبحث أيضا عن أقسام اللغة الأصلية، وطبقاتها من حيث التكوين، وهل إنها وضعت كلّها فى وقت واحد أم وضعت متتابعة، وكذلك نشير إلى عصمة أو عدم عصمة الأعراب الجاهليين عن الخطأ، وفيه إشارة موجزة إلى المنازعات التى حدثت بين نحويى البصرة والكوفة.

الكلمات الدليلية: اللغة، طبقات اللغة، اللغة العربية، الأعراب الجاهليون، البصريون، الكوفيون.

---

*.عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية فى گرمسار ـ أستاذ مساعد.
التنقيح والمراجعة اللغوية: د.هادى نظرى منظم.
H.Ahmadosman@yahoo.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٣/١٢هـ. ش
تاريخ القبول: ١٣٩٠/٤/١٢هـ. ش

المقدمة

استوفت كلّ أمة نصيبها من الحكمة والخبرة، وكانت على جانب من الكياسة وحسن السياسة تحرص بكلّ جد على أن يكون للغتها المقام الأرفع بين سائر اللغات، ولاتترك وسيلة إلاّ يتوسل بها لاستمالة الشعوب إلى ارتياد مَشرعها، ولاتبخل بشئ مما عندها فى سبيل تعزيزها ونشر لوائها بين الأمم، ولأجل الوصول إلى هذا الهدف تعقد المجامع اللغوية والندوات العلمية، وتفتح المعاهد لتعليم لغتها وتقويتها حتى فى غير بلادها، لتَشوُّق الطلاّب إليها ونشر أفكار شخصياتها العلمية وآثار أدبائها وشعرائها. ولاشک فى أن اللغة أهم وأمتن الصلة بين قلوب بنيها لصيانة قوميّتهم وحفظ جامعيتهم، وأقوى رابطة بين الأمم الّتى تتفق لغتها وتختلف سياساتها.ولقد بذل الفاتحون طوال العصور جهودهم فى سبيل نشر لغاتهم فى البلدان التى سيطروا عليها، كما بذلوا الجهد لتعلّم لغات شعوب تلک البلدان، کی يسهل لهم التعاون والتفاهم والتعايش معها، وإنّ صفحات التاريخ مليئة بما يؤيد هذه الحقيقة، وإن الأمم ليست أعنى باقتصادها منها بمناصرة لغاتها.إنّ الّذى يتيح له الفرصة لتفقّد العواصم العريقة فى الحضارة ويخالط أبنائها يرى أنهم يفتخرون بلغاتهم ويحاولون تحبيبها إلى الأقوام الأخرى، وهم حريصون أشدّ الحرص على شرفها، ولايطيقون أن ينال منها نائل، ولايصبرون على كلمة سوء من الآخرين يسلقون بها لغتهم ويحطّون من شأنها.وليس غريبا أن يكون للّغات هذه الأهمية ورفعة الشأن، فإن اللغة مرآة أحوال الأمة ومقياس مدنيتها، وسجل تأريخها ومفاخرها ومآثرها، ومستودع علومها وفنونها، ومجلّة عاداتها ونزعاتها والشاهد على ما كانت عليه من المجد والعزّة، والناطقة بما تفرّد به كتابها ونوابغها، وتُحدّثُ عن شؤونها الاجتماعية، والأدبية، والإدارية، والسياسية.ومن الطبيعى أن اللغة تتبع أمّتها فى العزّة، والذلّة، والحياة، والموت؛ فإذا كانت الأمّة عزيزة قوية رفيعة الراية، فإنّ لغتها تعزّ بعزّها، وإذا كان الأمر على العكس فعلى العكس، والدهر ينسج لكليهما كفنا ويدفنهما فى جدث واحد، فاللغة تابعة لأهلها تنقرض بانقراض أهلها وتحيا بحياتها، فإذا نظرنا إلى اللغات الميتة كالآشورية، والبابلية، والفينيقية، والحميرية أو التى أودعت فى بطون الصحف ولايتكلّم بها الآن أحد ولم يبق

لها كيان ولايتحرک بها لسان، کاليونانية القديمة أو اللغات الّتی تلقّن فی بعض الجامعات ولايتداولونها إلاّ فی العلوم العالية، فإنّ مرجعها فی ذلک هو انقراض أهلها، فانقرضت بانقراضه. وليس السبب فی ذلک قصور تلک اللّغات عن سد حاجات أقوامها فإنّ من بينها ما هی أدّت خدمات عظيمة، وقد أشار إلی ذلک البستانی حيث يقول: ولايسعنا أن نعزو دثور تلک اللغات إلی کونها عقيمة أو جامدة أو قاصرة عن سدّ حاجات أهلها، فإن اليونانية القديمة أوسع اللغات مادّة وأطوعها تصريفا وأغناها تعبيرا وأقيسها تفريعا، وقد أدت ولاتزال تؤدی لجميع اللغات الّتی تشعّبت عنها خدمة جليلة ِشعر بها کلّ من له إلمام بإحداها ولاسيما من حيث المستحدثات والمکتشفات العصرية فی شتی العلوم والفنون، فهی بلاريب أشبه بمعدن بعيد الغور يستخرجون ما يفتقرون إليه من الأوضاع لکلّ ما يجدُّ عندهم من المعانی الحديثة، ومع کلّ هذه المحاسن الروائع فقد لحقت بغيرها من اللغات بعد أن أدارت الدائرة علی قومها وغلبوا علی أمرهم.وکان فلاسفتها العظام، وخطباؤها المفوهون، وشعراؤها المبدعون أعجز من أن يصونوا کيانها بما خلّفوه من العقود الشعرية، والخطب العسجدية، والمقالات الجمانية. وکذا کان مصير اللاتينية الّتی جاءت عقيبها، فإنها بعد أن رفع أبناؤها راية مجدهم ومهابتهم فی الخافقين، وبعد أن دوّخوا أمما عديدة، وافتتحوا ما شاؤوا من الممالک المنيعة، وَصَفَت لهم الأيامُ قرونا فی قرون، عادت فنزعت من أيديهم ما جادت به عليهم وناصبتهم العداء. (البستانی، ١٩٩٢م: ٧) وتجدر الإشارة هنا إلی اللغة العربية، فإن أهلها وإن فقدوا سيادتهم، فهی لاتزال من اللغات الحية والمهمّة فی العالم، تغالب اللغات الّتی تنازعها البقاء، ويرجع ذلک إلی الفضل والمزايا والخصائص الرائعة الّتی أفردها الله بها سبحانه وتعالی، ويکفيها أن يکون القرآن الکريم مِجَنّاً لها يحفظها ويردّ عنها السهام الّتی تُصوّب إليها من قبل ذوی الغايات.

اللّغة: اللِّسنُ، وحدّها أنها أصوات يعبِّرُ بها کلّ قوم عن أغراضهم، وقيل: ما جری علی لسان کلّ قوم، وقيل: الکلام المصطلح عليه بين کلّ قبيلة، وقيل: اللفظ الموضوع للمعنی، وهی فُعلَةٌ من لَغَوت، أی تکلّمت، أصلها لُغوَة کَکُرَةٍ وقُلَةٍ وثُبةٍ، کلُّها لاماتُها

واواتٌ، وقيل أصلها لُغَىٌ أو لُغَو، فحذف لامها وعوض عنها بالتاء.ولايبعد أن تكون مأخوذة من «لوغوس» باليونانية، ومعناها الكلمة، وجمعها لُغى مثل برَة وبُرى، ولُغات ولُغون، والنسبةُ إليها لُغَوى بضم اللام.وعُرِّف علمُ اللغة بأنه معرفة أوضاع المفردات. والكتب التى تبحث عن تلك الأوضاع يقال لها المعاجم أو المعجمات جمع معجم، وأهل زماننا يسمونها بالقواميس. (البستانى، ١٩٨٧م،مادّة لغا؛ وأقرب الموارد: مادّة لغو) وتنقسم اللغة من حيث أصالتها إلى أقسام، أهمها: السامية والآرية.فالسامية يرتقى نسبها إلى سام بن نوح (ع)، وأشهرها من اللغات الحية: العربية، والعبرانية، والسريانية، والكلدانية، والحبشية.ومن اللغات التى دارت عليها الدوائر: البابلية، والفينيقية، والحميرية، والنبطية. وأما اللغات الآرية، فهى ترجع إلى أصل واحد هو اللغة الهندية القديمة وتعرف بالسنسكريتية، ومن سلالتها البهلوية، والصقلبية، والجرمانية وما تفرع عنها من اللغات، كالإنجليزية والألمانية، والفرنسية، والإيطالية، والإسبانية، وغيرها من اللغات العصرية الحية، وبقى طائفة ثالثة من اللغات فصلها علماء الألسن عن الأصلين السابقين، وتعرف عندهم باللغات الطورانية، وأشهرها المَجَرِية والتُّركية والتَّتَرية والمغولية. (البستانى،١٩٩٢: ٢٩) ولقد واجه الدارسون عقبات وأوهاما حول معرفة النشأة الأولى للغة البشر، والمصدر والينبوع الحقيقى الذى خرجت منه وامتدّت، ثمّ تفرّعت وتنوّعت، لذا فإن معظمهم بدأ ينصرف عنها ويرى أنها من مسائل ماوراء الطبيعة ولا جدوى من الاستمرار فيها. (أنيس، ١٩٦٨م: ١٣) ومع ما يرى من تخبط النظريات التى توصل إليه العلماء حول هذه المسألة، فقد بقى الباب مفتوحا لمزيد من الاجتهادات والتأويلات.ونحن نشير هنا إلى النظريات المختلفة حول هذه المسألة الجديرة بالاعتبار والاستقصاء:

١. نظرية تقليد الأصوات الطبيعية: ذهب البعض إلى أنّ أصل اللغة ومنشؤها من الأصوات، وفحواها أن المفردات اللغوية الأولى قد انبثقت من الأصوات الطبيعية بحيوانها ورياحها ونباتها وميائها ورعدها، كالأصوات المسموعات من دوى الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيح الحمار، ونعيق الغراب، ونزيب الظبى ونحو ذلك، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد، فتأثر الإنسان بذلك واهتدى إلى ألفاظ تمكن من توظيفها لبناء لغة

التخاطب بينه وبين بنى جنسه. (السيوطى، لاتا: ١٥/١؛ وأنيس، ١٩٦٨م: ٢١) ونظر البعض إلى هذه النظرية بسخرية، بحجة أنها ربطت الفكر الإنسانى عند حدود حظائر الحيوانات. ولا وجه للسخرية أو التهكم بها، حيث إن هناک ألفاظا کثيرة قد تولدت من هاتيک الأصوات وتطورت فيما بعد، واتخذت سبيلا إلى دلالات إنسانية راقية، فضلا عن أن الأصوات الّتى أفاد منها الإنسان ليست کلّها من مصدر حيوانى.

٢. نظرية الکلام الانفعالى الغريزى: تقوم هذه النظرية على ما يصدر عن الإنسان من أصوات انفعالية تلقائية جرّاء انقباض الأسارير، أى خطوط باطن الکف والوجه والجبهة، أو انبساطها على أثر الخوف والغضب أو الفرح الشديد.ومصدر هذا الکلام هو الشهقات أو التأوهات والزفرات، وما يشبهها، وهذه الأصوات ومعادلاتها من الکلام متحدة عند جميع الأفراد فى طبيعتها ووظائفها، وإنه يعد النشأة الأولى للّغة الإنسانية، ولم يعد يستخدم الإنسان هذه الغريزة الإنفعالية، فانقرضت مع الزمن.

٣. نظرية النشوء بفعل الاحتکاک الإنسانى: ومنشؤها الصورة الجماعية التى يعمل ضمنها الإنسان وهو فى وضع شاقّ ومضنک، فيصدر عنه أصوات غير مفهومة ولکنّها معبّرة. ويرى أصحاب هذه النظرية أنّ اللغة نشأت بفعل الاجتماع والاحتکاک، أى بفعل المجتمع الإنسانى، وهکذا بدأ الکلام وتکونت النواة الأولى لنشأة اللغة. (المصدر نفسه: ٣٤)

٤. نظرية التأثر بالأحداث الخارجية القائمة على ردّة الفعل المباشر بين ما يحدث فى الخارج وما ينطق به المرء من أصوات إزاءه، يعنى أن الألفاظ لاتعدو أن تکون صدى لتلک المؤثرات الخارجية إلا أن معرفة کنه الصلة بينهما أمر عسير على أذهاننا. (أنيس، ١٩٦٨م: ٢٥)

٥. نظرية الربط بين عالم الطفل والعالم البدائى. ومنظرها الأول «جسبرسن Jespersen- ت١٩٤٣م» الذى رأى أنّ نشأة اللغة عند الطفل تحاکى نشأتها لدى الإنسان البدائى، أى أنّ اللغة نشأت فى صورة لعب ممتع لايهدف إلى إيصال معنى إلى السامع، بل کانت أشبه بمناغاة الطفل وأصواته المبهمة. (أنيس، ١٩٦٨م: ٢٩)

وإذا دقّقنا النظر فى هذه النظريات يتبين لنا أنها لم تؤد غرضها المنشود، فالنشأة اللغوية الأولى بقيت مسرحا للاجتهادات والآراء والفرضيات، فلا نظرية تقليد الأصوات الطبيعية تمكنت من تعميم الألفاظ الصوتية على سائر المفردات والأحوال، ولا نظرية الكلام: الانفعال الغريزى وقفت فى احتواء الألفاظ والمعانى الغير الانفعالية والغريزية، ولا نظرية الربط بين عالم الطفل والعالم البدائى استطاعت أن تفضى بنا إلى البداية الحقيقية، وذلک لأن البدايات التأريخية الأولى لحياة الإنسان شأن تكهّنى وتقريبى، وكذلک تاريخ حياته وفعالياته وتدوينها، لم يعرف إلاّ بعد حقب طويل من الحياة البشرية. (البلاغة العربية: ٣٤،٣٥)

نظريتا التوقيف والاصطلاح

تضاربت النظريات وآراء العلماء حول هذه المسألة المهمة الجديرة بالاعتبار والبحث، فمن قائل إن اللغات توقيف، أى وحى، ومن قائل إنها تواطؤ، أى اصطلاح بين البشر، وآخر إن اللغة الأولى توقيفية، وما جاء بعدها من اللغات يجوز أن يكون اصطلاحا، وأن يكون توقيفا.ونذكر فى مايلى شيئا من أقوال كل فريق من أصحاب هذه الآراء والمذاهب الثلاثة، ثمّ نردفه بما اتفق عليه جمهور الباحثين فى هذا العصر:

المذهب الأول: نظرية التوقيف، ومن مؤيديها ابن الفارس المتوفى سنة (٣٩١هـ/١٠٠٠م) حيث يقول: «إعلم أن لغة العرب توقيف، أى وحى، ودليل ذلک قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٣١) وقد فسر الطبرى الآية بصورة مفصلة مشيرا إلى اختلاف أهل التأويل فى الأسماء الّتى علّمها الله آدم ثمّ عرضها على الملائكة، وذكر روايات عن ابن عباس وعن مجاهد (رضى الله عنهما). يشير بعضها إلى أن المقصود بالأسماء هو الأسماء الّتى يتعارف بها الناس، وبعضها إلى أنه علّمه اسم كلّ شىء، وذكر أقوال الآخرين، وأنّ بعضهم قالوا: علّمه أسماء الملائكة، وبعضهم قالوا أسماء ذرّيته، وذكر أنّ أولى هذه الأقوال بالصواب وأشبها بما دلّ على صحته ظاهر التلاوة قول من قال:

﴿وعَلّمَ آدمَ الأسماءَ كُلَّها﴾ إنها أسماء ذرّيته وأسماء الملائكة دون أسماء سائر أجناس الخلق، وذلک أنّ الله -جلّ ثناؤه- قال: ﴿ثمّ عَرَضَهُم عَلَى المَلائِكَةِ﴾ يعنى بذلک أعيان المسمين بالأسماء الّتى علّمها آدم، ولاتكاد العرب تكنى بالهاء والميم إلاّ عن أسماء بنى آدم والملائكة، وأما إذا كانت عن أسماء البهائم وسائر الخلق سوى من وصفنا، فإنها تكنى عنها بالهاءِ والألفِ أو بالهاءِ والنونِ، فقالت: عرضهنّ، أو عرضها، وكذلک تفعل إذا كنّت عن أصناف من الخلق كالبهائم والطير وسائر أصناف الأمم، وفيها أسماء بنى آدم والملائک، إنها تكنى عنها بما وصفنا من الهاءِ والنون، أو الهاء والألف، وربما كنت عنها إذا كان كذلک بالهاء والميم، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ (النور: ٤٥) وهى أصناف مختلفة فيها الآدمى وغيره، وذلک وإن كان جائزا فإنّ الغالب المستفيض فى كلام العرب ما وصفناه من إخراجهم كناية أسماء أجناس الأمم إذا اختلط، بالهاء والألف، أو الهاء والنون. (الطبرى، ١٩٥٤م: ١/٢١٦-٢١٥) فإن قال قائل: أتقولون سيف وحسام وعضب إلى غير ذلک من أوصافه أنه توقيف حتى لايكون شئ منها مصطلحا عليه؟ قيل له كذلک نقول، والدليل على صحته إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه أو يتفقون عليه ثمّ احتجاجهم بأشعارهم.ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحا، لم يكن أولئک فى الإجماع بهم بأولى منّا فى الاحتجاج بنا لو اصطلحنا على لغة اليوم ولا فرق. (السيوطى، لاتا: ٩) والخلاف الناشئ عن هذه النظرية هو فى كيفية وصول اللغة إلينا: أ بالإلهام النبوى، أم بخلق أصوات فى الأشياء وإسماعها لمن عَرَفها ونقلها، أم بعلم خصّ به الله بعض عباده. (البلاغة العربية: ٣٧)

المذهب الثانى نظرية الوضع الإنسانى أو الاصطلاح، وقد شرحها أبوالفتح عثمان بن جنى المتوفى سنة (٣٩٢هـ/١٠٠١م) وهو من أتباع هذا المذهب، فقال: أكثر أهل النظر على أنّ أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح لاوحى وتوقيف، وذلک بأن جمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا، فيحتاجون إلى الإبانة عن الأشياء والمعلومات، فيضعوا لكلّ واحد منها سمة ولفظا، إذا ذُكر عُرِفَ به ما مسمّاه ليمتاز عن غيره، ويغنى بذكره

عن إحضاره إلى مرآة العين، لبلوغه الغرض فى إبانة حاله، بل قد يحتاج فى كثير من الأحوال إلى ذكر ما لايمكن إحضاره ولاإدناؤه، كالفانى وحال اجتماع الضدين على المحل الواحد، وكيف يكون ذلک لو جاز، وغير هذا مما هو جار فى الاستحالة والتعذر مجراه. (السيوطى، لاتا: ١٢،١٠؛ والبستانى، ١٩٩٢م: ٩-٨) ونقل السيوطى عن محمد الغزالى قوله فى المنخول: «قال قائلون: اللغات كلّها اصطلاحية؛ إذ التوقيف يثبت بقول الرسول، ولايفهم قوله دون ثبوت اللغة، وقال آخرون: هى توقيفية؛ إذ الاصطلاح يعرضُ بعد دعاء البعض البعض بالاصطلاح، ولابدّ من عبارة يفهم منها قصد الاصطلاح، وقال آخرون: مايفهم منه قصد التواضع توقيفى دون ما عداه، ونحن نجوّز كونها اصطلاحية، بأن يحرّک الله تعالى رأس واحد، فيفهم آخر أنه قصد الاصطلاح، ويجوز كونها توقيفية، بأن يثبت الرّب تعالى مراسم وخطوطا يفهمُ الناظرُ فيها العباراتِ، ثمّ يتعلّم البعض عن البعض. وكيف لايجوز فى العقل كلّ واحد منهما ونحن نرى الصبى يتكلّم بكلمة أبويه، ويفهم ذلک من قرائن أحوالهما فى حال صغره، فإذن الكلّ جائز؛ وأما وقوع أحد الجائزين فلايستدرک بالعقل، ولادليل فى السمع، وقوله تعالى: ﴿وَعلَّمَ آدَمَ الأسماءَ كُلَّهَا﴾ ظاهر فى كونه توقيفا وليس بقاطع، ويحتمل أن كونها مصطلحاً عليها من خلق الله تعالى قبل آدم. (السيوطى، لاتا: ٢٣-٢٢) ونقل عن صاحب كتاب شرح الأسماء قوله: قال الجمهور الأعظم من الصحابة والتابعين من المفسرين إنها كلّها توقيف من الله تعالى، وقال أهل التحقيق من أصحابنا لابد من التوقيف فى أصل اللغة الواحدة، لاستحالة وقوع الاصطلاح على أول اللغات من غير معرفةٍ من المصطلحين بعَينِ ما اصطلحوا عليه، وإذا حصل التوقيف على لغة واحدة، جاز أن يكون ما بعدها من اللغات اصطلاحا وأن يكون توقيفا، ولايقطع بأحدهما إلا بدلالة.واختلف المؤرخون حول بداية النطق العربى أهو بإسماعيل بن خليل عليهما السلام، أم بالقبائل العربية الّتى سبقته؟ فمن زعم أنّ اللغات كلّها اصطلاح، كذا قوله فى لغة العرب، ومن قال بالتوقيف على اللغة الأولى، وأجاز الاصطلاح فى ما سواها من اللغات، اختلفوا فى لغة العرب، فمنهم من قال هى أول اللغات، وكل لغات سواها حدثت بعدها إما توقيفا أو اصطلاحا، واستدلوا بأن القرآن

كلام الله وهو عربى، وهو دليل على أن لغة العرب أسبق اللغات وجودا، ومنهم من قال لغة العرب نوعان: أحدهما عربية حميرية، وهى الّتى تكلّموا بها من عهد هود ومَن قبلَه وبقى بعضها إلى وقتنا هذا. والثانية العربية المحضة الّتى نزل بها القرآن، وأول من أُنطِقَ لسانه بها إسماعيل(ع)، فعلى هذا القول يكون توقيف إسماعيل على العربية المحضة يحتمل أمرين: إمّا أن يكون اصطلاحا بينه وبين جرهم النازلين عليه بمكة، وإمّا أن يكون توقيفا من الله تعالى، وهو الصواب. (المصدر نفسه: ٢٨-٢٧) ويرى محمد بن إسحاق المعروف بابن النديم (ت٤٣٨هـ/١٠٤٦م) أن النطق باللغة العربية بدأ بالقبائل العربية، حيث قال: «فأما الّذى يقارب الحق، وتكاد النفس تقبله، فذكر الثقة أن الكلام العربى بلغة حمير، وطسم، وجديس، وإرم، وحويل، وهؤلاء العرب العاربة، وإن إسماعيل لمّا حصل فى الحرم ونشأ وكبر، تزوج فى جرهم آل معاوية بن مضاض الجرهمى، فهم أخوال ولده، فتعلّم كلامهم، ولم يزل ولد إسماعيل على مرّ الزمان يشتقون الكلام بعضه من بعض ويضعون للأشياء أسماء كثيرة بحسب حدوث الأشياء الموجودات وظهورها، فلمّا اتسع الكلام ظهر الشعر الجيد الفصيح فى العدنانية، وكثر هذا بعد معد بن عدنان (ابن النديم، ١٩٧٨م: ٧) ويرى محمد بن سلاّم الجُمحى(ابن سلام، ١٩١٣م: ٤) مستندا إلى رواية يونس بن حبيب أحد شيوخ النحو البصريين (ت ١٨٢، أو ١٨٣هـ/٧٩٩م) أن أوّل من تكلّم بالعربية ونسى لسان أبيه، إسماعيل بن إبراهيم صلوات الله عليهما، فقال: قال يونس بن الحبيب: أول من تكلّم بالعربية إسماعيل بن إبراهيم وأخبرنى مِسمَع بن عبد الملك سمع محمد بن على هو ابن حُسَين يقول: قال أبوعبد الله: أول من تكلّم بالعربية ونسى لسان أبيه إسماعيل بن إبراهيم، وأضاف: أخبرنى يونس عن أبى عمرو قال: العرب كلّها من ولد إسماعيل إلاّ حِمير وبقايا جُرهم. وكذلك يروى أنّ إسماعيل جاورهم وأصهر إليهم، ولكنّ العربية الّتى عَنى محمّد بن على هو اللسان الّذى نزل به القرآن. وقال السيوطى فى المزهر (السيوطى، لاتا: ٣٤): ذكر الشيرازى فى كتاب الألقاب بالإسناد إلى محمد بن على بن الحسين، عن آبائه، عن النبى(ص) أنّ أول من فتق لسانه بالعربِية المتينة إسماعيل عليه السلام، وهو ابن أربع عشرة سنة. ونقل أيضا عن ابن جنى

قوله: إنّ أباعلى قال لى يوما: هى (اللغة) من عند الله، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسماءَ كلّها﴾ وهذا لايتناول موضع الخلاف، وذلک أنه قد يجوز أن يکون تأويله: أقدَرَ آدَمَ على أن واضع عليها، وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة، فإذا کان ذلک محتملا غير مستنکر سقط الاستدلال به، وقد کان أبوعلى أيضا قال به فى بعض کلامه، وهذا أيضا رأى أبى الحسن، على أنه لم يمنع قول من قال إنها تواضع منه، وعلى أنه قد فُسِّرَ هذا بأن قيل: إنه تعالى علّم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات: العربية، والفارسية، والسريانية، والعبرانية، والرومية، وغير ذلک، فکان آدم وولده يتکلّمون بها، ثمّ إنّ أولاده تفرّقوا فى الدنيا وعَلِق کلّ واحد منهم بلغة من تلک اللغات فغلبت عليه، واضمحلّ عنه ما سواها لبعد عهدهم بها، وإذا کان الخبر الصحيح قد ورد بهذا وجب تلقيه باعتقاد به والانطواء على القول به. (المصدر نفسه: ١١) وذکر البستانى أنّ المحققين فى هذا العصر جلّهم يرتأون أن الکلام الّذى نطق به الإنسان لم يکن عن مواطأة، بل بقوة الغريزة الناطقة الّتى رکب الله فيه مما أعانه على استنباط ما يفتقر إليه من الألفاظ للتعبير عن حاجته، فکانت لغته فى أول عهده لايتعدى حدود مطعمه ومشربه وما يقع عليه بَصَرُهُ من المحسوسات على اختلاف أنواعها، ثمّ أخذت تنمو بنمو معارفه وتتسع باتساع مدارکه. (البستانى، ١٩٩٢م: ٩) ويرى السيوطى فى المزهر (٢٢-٢١): أن العقل يجوّز التوفيق والتواطؤ، فتجويز التوقيف لاحاجة إلى تکلّف دليل فيه، ومعناه أن يثبِت الله تعالى فى الصدور علوما بديهِيةً بصيغ مخصوصة بمعانى، فتتبينُ العقلاء الصِيغَ ومعانيها، ومعنى التوقيف فيها أن يلقوا وضع الصيغ على حکم الإرادة والاختيار؛ وأما الدّليل على تجويز وقوعها اصطلاحا فهو أنه لايبعد أن يحرّک الله تعالى نفوس العقلاء لذلک، ويعلم بعضهم مراد بعض، ثمّ ينشؤون على اختيارهم صِيغا، وتقترن بما يريدون أحوالٌ لهم، وإشارات إلى مسمّيات، وهذا غير مستنکر، وبهذا المسلک ينطقُ الطفل على طوال ترديد المسمع عليه ما يريد تلقينه وإفهامه، والتعويل فى التوقيف وفرض الاصطلاح على علوم تَثبتُ فى النفوس، فإذا لم يمنع ثبوتها لم يبق لمنع التوقيف والاصطلاح بعدها معنى، ولا أحد يمنع جواز ثبوت العلوم الضرورية على النحو المبين.

طبقات اللغة من حيث التكوين

تقسم اللغة من حيث تكوينها، إلى ثلاث طبقات: ١. أحادية ٢. مزجية ٣. متصرفة. فالأحادية تتألف ألفاظها من مقطع واحد لايتغير تبعا للمعانى، ومن هذا النوع اللغة الصينية، وأما المزجِية فهى الّتى تتركب الألفاظ فيها من كلمتين، تدل أولاهما على أصل المعنى، والثانية على المعنى المضاف إليه، كالفعل والزمان والمكان، ويندرج فى هذا النوع كل من اللغات اليابانية والتركية، وهذه الطبقة أرقى من الأولى وأدنى من الثالثة، وأما المتصرفة فهى الّتى يتحول فيها الأصل الواحد إلى صيغ شتى كلّ منها يدل على معنى لايدل عليه الآخر، ومن هذا النوع العربية والعبرانية والسريانية، غير أن العربية قد امتازت من بين اللغات بكونها لغة اشتقاقية وإعرابية معا، فبالاشتقاق تحول المادة الواحدة إلى صور متعددة تبعا للمعانى الجزئية، وهو من خصائص علم الصرف، فتقول مِن جَمَعَ – مثلا – يجمع، وأجمع، وجامع، ومجموع، وجمّاع، ومجمع...إلخ. وبالإعراب تُعرَفُ كلّ كلمة من الجملة أفاعل، أم مفعول، أم مبتدأ، أم خبر؟ وغير ذلک مما تراه مبسوطا فى كتب النحو.أما اللغات الحديثة، فأكثرها من اللغات التحليلية، وهى الّتى يكون فيها للمعنى ولكلّ من توابعه لفظة خاصة بخلاف العربية، وهى من فصيلة اللغات الإجمالية الّتى يتّحد فيها ما يدل على أصل المعنى بما يدل على تابعه من زمان ومكان وفاعل ومفعول...إلخ. (البستانى، ١٩٩٢م: ١٠)

تناسب اللفظ والمعنى فى اللغة العربية

أشار البستانى إلى التناسب المعجب الموجود بين اللفظ والمعنى فى اللغة العربية قائلاً: إذا قيض لک أن تتبحر فى هذه اللغة وتقف على مكنوناتها وتطّلع على سرّ الواضع فيها والطريقة التى تمشّى عليها الواضع فى صياغة أصولها وكيف أحسن التفريع على تلک الأصول مراعيا التناسب بين كلّ أصل وفرعه، لم تمتلک من نفسک إلاّ الإعجاب بذهن العرب الشفاف وهم تحت سمائهم الصافية الأديم، وكيف يرونک من الكلمات الجامدة حياة، ومن التفنن فى تركيب مبانيها، ومن جعل الحروف الأضعف فيها والألين،

والأخفى، والأسهل، والأهمس لما هو أدنى وأقل، وأخف عملا أو صوتا، والحروف الأقوى، والأشدّ، والأظهر، والأجهر لما هو أقوى عملا وأعظم حسّاً، ما يجعل الإنسان فى حيرة، ولولم يكن الاختلال فى بعض متون اللغة والاضطراب فى أوضاعها، كانت الصلة بين المعنى الحقيقى والمجازى أكثر سطوعا من البدر فى جوف الظلام، وما كنا نرى البون الشاسع فى بعض الكلمات التى كادت تعدم الرابطة بين المعانى المختلفة للكلمة الواحدة، وإنّ هذا أقوى دليل على أنّ يد التصحيف، والتحريف، والإفساد وصلت إلى هذه اللغة بعد أن تفرّقت القبائل العربية فى الأطراف وتظاهرت عليها عوامل العجمة. (البستانى، ١٩٩٢م: ١١-١٢) وجدير بالذكر أنّ القرآن الكريم هو الّذى حفظ هذه اللغة وكيانها، وإلا كادت أن لاتبقى لها كيان، ولربما كانت تلحق ببقية اللغات السامية الّتى لانرى أحدا يهتمّ بها وانمحت فى صفحات الدهر. ولا بأس بأن نورد هنا بعضا من الألفاظ والأمثلة الّتى تنطق بحكمة واضعيها ودقتهم، ليكون دليلا على ما ذكرناه، ومن ذلك المدّ والمطّ، فإن فعل المطّ أقوى، لأنه مدّ وزيادة جذبٍ، فتناسب الطاء الّتى هى أعلى من الدال، ومن ذلك الجُفُّ بالجيم: وعاء الطلعة – وهى واحدة الطلع، والطلعُ نور النخل ما دام فى الكافور، أى فى وعائه إذا جفّ، ومن ذلك الخُفُّ بالخاء: الملبوس وخف البعير والنعام، ولا شك أن الثلاثة أقوى وأجلد من وعاء الطلعة، فخصت بالحاء الّتى هى أعلى من الجيم، وإنّ مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث باب عظيم واسع ونهج مستقيم عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها فيعدِلونها بها ويحتذُونها عليها، من ذلك قولهم: خَضِم وقضِم، فالخضمُ لأكل الرَّطب، كالبطّيخ والقثاء وماكان من نحوها من المأكول الرّطب، والقضم لأكل اليابس، نحو قَضِمَتِ الدابّةُ شَعيرها. وفى الخبر: قد يدركُ الخضم بالقضم. ومن ذلك النضح للماء ونحوه، والنضخ أقوى منه.قال تعالى: ﴿فيهِما عَينانِ نَضّاخَتانِ﴾(الرحمن: ٢٠) فجعلوا الحاء لرقّتها للماء الخفيف، والخاء لغلظتها لما هو أقوى منه، ومن ذلك قولهم: القدّ طولا والقطّ عرضاً، لأن الطاء أخفض للصوت وأسرع قطعاً له من الدّال، فجعلوا الطاء لقطع العَرض، لقربه وسرعته، والدال لما طال من الأثر

وهو قطعه طولا. (السيوطى، لاتا: ٥٤و٥٣و٥٠) وقالوا: أسرف الرجل ماله: إذا بذّره وأنفقه فى غير حاجة، وهذه الكلمة مشتقة من السّرف.والسرفة هى دويبة سوداء الرأس سائرها أحمر تقع على بعض الشجرة فتنسج، فتأكل ورقها وتفسدها وتهلك ما بقى منها. (لسان العرب،ج٦: مادة سرف) وقريب من هذا المعنى قولهم: بذّر ماله إذا أفسده وأنفقه إسرافا، وهو مجاز عن قولهم: بذّر الحَبَّ: إذا نثره فى الأرض، وبذّر الشئ: إذا فرّقه، فكأنّ المبذّر لما له يبدّد وينثره فى الأرض حتى يضيع أو يلتقطه عابر السبيل. وقالوا: ملّ الرّجُل وأملّ صاحِبَهُ، إذا أوقعه فى الملل، وتملّل، إذاتقلّب من مرض أو نحوه.وجميع هذه الأفعال مشتقّة من المَلَّةِ وهى الرّماد الحارّ، فكأن الملول يتقلّب على المَلَّةِ فيشعر بألم.وواضح من ذلک قولهم: تَمَلمَلَ الرَّجُلُ، إذا تقلّب فى مضجعِهِ من الألم، وهو متفرّع من قولهم: مَلمَلَ الرَّجُلُ اللّحمَ، إذا قَلَّبَهُ على النّار. (لسان العرب،ج١٣: مادّة ملل؛ والبستانى، ١٩٩٢م: ١٢) وقالوا: حاوَتَهُ، إذا راوَغَهُ، وهو مشتق من الحوت، فكأنه فعل معه فعل الحوت فى الماء. وقالوا: النُهى بمعنى العقل، لأنه ينهى صاحبه عن اقتراف المعاصى. سمّى العقل عقلا، لأنه يعقله، أى يمنعه عن اجتراح المنكرات. (لسان العرب، ج٣: مادة حوت؛ وج ١٤: مادة نهى) وفى التنزيل العزيز: ﴿إِنَّ فِى ذَلِکَ لَآياتٍ لِأُولِى النُّهَى﴾ (طه: ٥٤) وقالوا: تناسموا، إذا تحادثوا، وهو من النسيم، فكأنّ كلاّ منهم كان لصاحبه كالنسيم فى حديثه. وقالوا: جرّده، إذا عرّاه، وهو – كما قال البستانى – مشتق من الجراد الّذى إذا حلّ فى أرض عرّاها من أعشابها، ونزع الأوراق على أشجارها. وأجمع الأقدمون على أن الجراد هو مشتق من الجرد. وقالوا: تشاجر القوم إذا تنازعوا وتخاصموا، وهو مشتق من الشجرة، فكأنهم اختلفوا كاختلاف أغصان الشجرة أو اشتبكوا فى القتال كاشتباک الشجرة، وقالوا: تلاحم القوم إذا تقاتلوا، وهو مشتق من لُحمَة الثوب، فكأنهم فى القتال قد التحموا واختلطوا كما تلتحم اللحمة. (البستانى، ١٩٩٢م: ١٣-١٢) وفى الفرق بين السخاء والجود، أنّ السخاء هو أن يلين الإنسان عند السؤال ويسهل عطاؤه للطالب، من قولهم سخوت النار أسخوها، وسخوت الأديم لينته، وأرض سخاوية لينة التراب مع بُعد الأطراف، والسخو: الموضع الّذى يوسع تحت القدر ليتمكّن الوقود، فالسخى يتسع صدره للعطية كاتساع موضع النار

واتساع الأرض، ولهذا لايقال: الله سخى، والجود كثرة العطاء من غير سؤال، من قولك: جادت السماء، إذا جادت بمطر غزير، والفرس الجواد الكثير الإعطاء للجرى، والله جواد، لكثرة عطائه فيما تقتضيها الحكمة. (أبوهلال العسكرى، ۱۹۹۴م: ۱۴۲؛ وزرزور، لاتا: ۱۵۷)
ومن الألفاظ الدالّة على الوقار: اللبّ وهو العقل، ولبّب فى العربية يدل على خلاص الشئ وتنقيته من الشوائب، فلبُّ كلّ شئ خالصه وخياره، مأخوذ من لبّ الثمر وهو ما يؤكل داخله ويرمى خارجه، نحو الجوز واللوز، والجمع اللبوب، ولبّ النخلة: قلبها، ومنه سمّى العقل لبّا على التشبيه باللبّ من الثمر، وجاء فى قول عبيد بن الأبرص:

ولا تَتبعــنّ الــرّأى منــه تقصُّهُ   ولكن برأى المرء ذى اللُّبِّ فاقتدِ

(زرزور، لاتا: ۲۳۴،۲۳۵)

وفى العفّة قالوا: النّزيه، وهو فى الأصل الابتعاد والتباعد.يقال نَزِهَت الأرض وأرضٌ نَزِهَة ونزِهة، أى عذبة نائية من الأنداء والمياه والغَمَق، وسمّيت الفلاة نزهة، لبعدها عن عمق المياه وذباب القرى وفساد الهواء، وقيل للرجل الّذى يترفّع عما يذمّ به نزيه، ويقال: فلان نَزِه الخلق ونزِهه ونازه النفس: عفيف متكرّم يتنزّه عن المطامع، قال بشر بن حازم:

إذا لم يأتک المعروف طوعا   فدَعــهُ فالتّنــزُّهُ عنــه مال

(المصدر نفسه: ۲۱۳)

واللغة قياسية فى الأصل.قال البستانى: إذا تصفحت متن اللغة وقلّبت النظر فى أحكامها وأصولها وضوابطها ومعانيها من التناسب والتلاحم، حكمت ولا ريب أنها قياسية فى الأصل، وما تطرّق إليها من الشذوذ إنما هو طارئ عليها والشذوذ فيها غير أصيل، وأكثر ما تقع فيها من الشوارد والشذوذ فى اللغات فى الشعر، لِتَقَيدِ الشاعر بالوزن، ولاتقع فى النثر إلاّ لخطأ من الناثر أو سهو منه. وذكر ما جاء فى الخصائص لابن جنى تعزيزا لما قاله، فقال: قال ابن جنى: «وقد تقدم فى أول الكتاب القول على اللغة أتواضع هى أم إلهام، وحكينا وجوزنا فيها الأمرين جميعا، وكيف تصرفت الحال وعلى أى الأمرين كان ابتداؤها، فإنها لا بدّ أن يكون وقع فى أول الأمر بعضها ثمّ احتيج فيما

بعد إلى الزيادة عليه، لحضور الداعى إليه، فزيد فيها شيئا فشيئا إلاّ أنه على قياس ما كان منها فى حروفه وتأليفه وإعرابه المبين عن معانيه لايخالف الثانى الأول ولا الثالث الثانى كذلک متصلا متتابعا، وليس أحد من فصحاء العرب إلاّ أن يقول إنه يحکى کلام أبيه وسَلَفِه يتوارثونه آخر عن أوّل وتابع عن متّبع، وليس کذلک أهل الحضر، لأنهم يتظاهرون بينهم بأنهم ترکوا وخالفوا کلام من ينتسب إليه اللغة العربية الفصيحة، غير أن کلام أهل الحضر مضاهٍ لکلام فصحاء العرب فى حروفهم وتأليفهم إلاّ أنهم أخلّوا بأشِياء من إعراب الكلام الفصيح، وهذا رأى أبى الحسن، وهو الصواب. (البستانى، ١٩٩٢م: ٢٢-٢١)

هل اللغات أحادية أم ثنائية فى أصلها وهل أنها وضعت أو جاءت كلّها فى وقت واحد أم لا؟

أما من حيث كون اللغات أحادية أم ثنائية، فقال البستانى: مما أطبق علماء الألسن على تقريره فى هذا العصر أنّ اللغات ولا سيما العربية هى فى الأصل ثنائية الوضع، أى مركبة ألفاظها من حرفين ثانيهما ساكن، مثل: خَر، وهَب، وقَد، وصَک...إلخ، ثمّ قضت الحال أن يضيفوا إلى الأصل حرفا أو أكثر، فحصل عن ذلک أبنية لاتحصى مما استوفوا الكلام عليه فى مباحثهم اللغوية، وقد اجتمعت كلمتهم أيضا على أن الألفاظ هى فى الأصل حكاية صوت، كخرير الماء ودوى الريح وزمزمة الرّعد وحفيف الورق ونعيب الغراب وصهيل الفرس وما أشبه ذلک. (المصدر نفسه: ١١)

لقدذکرنا فيماسبق نظريتى التواطؤ والتوقيف، ولربّما يسأل: هل وضعت اللغة فى وقت واحد فى حالتى القول بالتواطؤ أو التوقيف؟ فالجواب: أن اللغات لم توضع فى وقت واحد، بل وضعت متلاحقة متتابعة، لأن الواضعين لها كانوا كلّما اضطروا إلى التعبير عن معنى، وضعوا له لفظا يدلّ عليه ويميزه عما سواه. وأول ما تواضعوا عليه من الكلمات ما كانوا فى أمس الحاجة إلى تداوله للإعراب عن حاجاتهم المعاشية مما لاتعدى فى الغالب المأكل والمشرب، ثمّ تطرّقوا إلى وضع الألفاظ للمحسوسات، وبقيت اللغة عدة قرون يكاد لايوضع فيها كلمة للمعقولات والخيالات والوهميات والكماليات، لأن

معارف أولئک القوم کانت غاية فی البساطة، فلم تکن جاهليتهم الجهلاء لتدفعهم إلی ميدان الحضارة الفسيح، فيخرجوا من الخشونة إلی النعومة ومن الشظف إلی الترف، بل کان کلّ همّهم أ ن يستثمروا الأرض ويستخدموا العجماوات فی سبيل أغراضهم، وکذلک علی القول بأنّ اللغات توقيف، فإنها ما جاءت فی وقت واحد بناءً علی ما ذهب إليه وذکره السيوطی حيث قال: ولعلّ ظانّاً يظنّ أنّ اللغة الّتی دللنا علی أنها توقيف إنما جاءت جملةً واحدةً، وفی زمان واحد، وليس الأمر کذلک، بل وقّف الله عزّ وجلّ آدم _ عليه السلام – علی ما شاء أن يعلّمه إياه ممّا احتاج إلی علمه فی زمانه وانتشر من ذلک ما شاء الله، ثمّ علّم بعد آدم من الأنبياء –صلوات الله عليهم – نبيا نبيا ما شاء أن يعلّمه حتی انتهی الأمر إلی نبينا محمّد(ص)، فآتاه الله من ذلک ما لم يؤته أحدا قبله تماما علی ما أحسنه من اللغة المتقدمة، ثمّ قرر الأمر قراره. (البستانی، ١٩٨٧م: ١١؛ والسيوطی، لاتا: ٩)

اللغة العربية لغة غنية ومتسعة

إنّ الفروق الموجودة فی اللغة العربية أدلّ شئ علی اتساعها وغنائها، غير أن ذلک وإن دلّ علی دقّة تصور البدوی وفسحة خاطره فإنه يحمل روّاد هذه اللغة علی أن ينقلبوا عن موردها نافرين ولاسيما فی هذا العصر الّذی ازدحمت فيه الحاجات وضاقت وجوه الارتزاق وأصبح الناس أميل إلی تعلّم إحدی اللّغات الحية فی أسرع ما يمکن من الوقت حتی يتسع لهم المجال لاقتباس العلوم والفنون الجميلة الّتی لامندوحة لهم عنها فَيقوَوا علی مجاراة غيرهم من الأمم فی ميدان تنازع البقاء. ونورد هنا شيئا من هذه الفروق ليکون دليلا وبينة علی المصاعب الّتی تعترض الطلاّب وتحول بينهم وبين التضلّع من هذا اللسان. يقولون: الصباحَةُ فی الوجه، والوَضاءةُ فی البَشَرَة، والجَمالُ فی الأنفِ، والمَلاحَةُ فی الفمِ، والحَلاوَة فی العَينينِ، والظَّرفُ فی اللسان، والرّشاقَةُ فی القَدِّ، واللّباقَة فی الشمائِلِ، وکمالُ الحُسن فی الشَّعرِ.ويقولون: الشَّعر للإنسان وغيره، والصّوف للغنم، والمِرعِزَّی والمِرعِزّاء للمعز، والوَبَرُ للإبِل والسِّباع، والعِفاءُ للحمار، والرّيش للطائر،

والزغب للفرخ، والزِّفُّ للنّعام، والهُلَّب للخنزير. (الثعالبى، لاتا: ٩٢و٤٨) ويسمون الطعام الّذى يصنع عند العرب للعُرس: الوَليمَةُ، وعند المأتم: الوَضيمَة، وعند الولادةِ: الخُرسُ، وعند الختان: العَذِيرة، وعند القدوم من سفر: النقيعَة، والمأدُبة طعام الدعوة، والوَكيرَةُ طعامُ البناء، وطعام المستعجل قبل إدراک الغداء العُجالةُ. (المصدر نفسه: ٢۶۶) ويقال: فلان جائعٌ إلى الخُبز، قَرِم إلى الّلحمِ، عطشانٌ إلى الماء، عَيمان إلى الَّلبن، بَرِدٌ إلى التّمر، جَعِمٌ إلى الفاكهة. وأوّلُ مراتب الحاجةِ إلى شُرب الماءِ: العَطَشُ، ثمّ الظّمأُ، ثم الصّدَى، ثمّ الغُلّةُ ثمّ اللُّهبَةُ، ثمّ الهُيامُ ثمّ الأُوامُ، ثمّ الجُوادُ وهو القاتلُ. (المصدر نفسه: ١۶۶و١۶٧) ويقولون: يده من اللحم غَمِرة، ومن الشحم زَهِمة، ومن السمک ضَمِرة، ومن الزيت قَنِمة أو وضيئَة، ومن البيض زَهِكة، ومن الدهن زَنِخة، ومن الخلّ خَمِطة، ومن العسل لَزِجة، ومن الفاكهة لَزِقة، ومن الدّم ضرِجة، ومن الطين رَدِغة، ومن الحديد سَهِكة، ومن العذرة طَفِسة، ومن البول وَشِلة، ومن الوسخ رَوِثة، ومن اللبن وَضِرة، ومن العجين لَوِثة، ومن الجبن نَسِمة، ومن النَّقسِ طَرِسة، ومن الدّقيق نَثِرة، ومن السويق والبزر رَضِفة، ومن الفرصاد قَنِئَة، ومن البِطّيخ نَضِجة، ومن الّذهب والفضّة قَتِمة، ومن الكافور سَطِعة، ومن التراب تَرِبة، ومن الرّماد رَمِدة، ومن الخبز خَبِزة، ومن المِسک ذَفِرة، ومن غيره من الطيب عَطِرة أو عَبِقة، ومن الرّوائح الطيبة أرِجة. (البستانى، ١٩٩٢م: ١٩-١٨) ويسمون من طرف الخِنصَر إلى طرف الإبهام: الشِّبر، ومن طرف الإبهام إلى طرف السبابة: الفترُ، وبين السبابة والوسطى: الرَّتَب، وما ين الوسطى والبِنصَر: العَتَب، وما بين الخِنصَرِ والبِنصَرِ: الوصيم، وهو البُصمُ أيضا، وما بين كلّ إصبعين: الفَوت وجمعُه أفوات. (السيوطى، لاتا: ۴۴۵) ويقولون فى خروج الماء من السّحاب: سحَّ، ومن الينبوع: نبعَ، ومن الحجَرِ: انبَجَسَ، ومن النَّهرِ: فاضَ، ومن السَّقفِ: وكفَ، ومن القِربَةِ: سَرَبَ، ومن الإناءِ: رَشَحَ، ومن العَينِ: انسكبَ، ومن الجَرحِ: بثعَ أو ثعَّ. (الثعالبى، لاتا: ٢٨۵؛ والجزائرى، ١۴٠٨ق: ٢٣١) ويقولون فى محاسن العين إذا كانت شديدة السواد مع سعة المقلة: الدَّعَجُ، والبَرَحُ: شدّةُ سوادها وبياضها، والنَّجلُ: سَعَتُها، والكَحلُ: سواد جفونها من غير كحل، والحَوَرُ: اتّساع سوادها كما هو فى أعين الظِّباء، والوَطَفُ : طولُ أشفارِها وتمامُها، والشُّهلَةُ: حُمرَةٌ فى سوادها، ويقال للرجل أول

ما يظهر الشيبُ به: قَد وخطَهُ الشيبُ، فإذا زاد قيل: قَدخَصَفهُ وخَوَّصَهُ، فإذا ابيضَّ بعض رأسِهِ قيل: أخلَس رأسُهُ فهُو مُخلِسٌ، فإذا غلبَ بياضُهُ سوادَهُ، فهو أغثَمُ، فإذا شَمِطَت مواضعُ مِن لحيته قيل: قَد وخَزَهُ القَتيرُ ولَهَزَهُ، فإذا كثُرَ فيهِ الشَّيبُ وانتَشَرَ قيل: قَد تفَشَّغَ فيه الشَّيبُ. (الثعالبی، لاتا: ٩٥،٨٣) ويقولون فی القطع من أشياء تختلف مقاديرها فی الكثرة والقلّة: كِسرَةٌ من الخُبزِ، فِدرَةٌ من اللّحم، هُنانَةٌ من الشحمِ، فِلذَةٌ من الكَبِدِ، تَرعيبَةٌ من السَّنام، نَسفَةٌ من الدَّقيق، فَرَزدَقَةٌ من الخَمرِ، لَبَكَةٌ من الثَّريدِ، عبَكَةٌ من السّويق، غُرفَةٌ من المَرَقِ، شُفافَةٌ من الماءِ، درَّةٌ من اللّبَنِ، كَعبٌ من السَّمنِ، ثَورٌ من الأقِطِ، كُتلَةٌ من التّمرِ، صُبرَةٌ من الحِنطَةِ، نُقرَةٌ من الفضَّةِ، بَدرَةٌ من الذّهبِ، كُبَّةٌ من الغَزلِ، خُصلَةٌ من الشَّعَرِ، زُبرةٌ من الحديد، حَصاةٌ من المِسكِ، جَذوَةٌ من النّار، كِسفَةٌ من السَّحابِ، قَزعَةٌ من الغَيم، خِرقَةٌ من الثوبِ، فِرصَةٌ من القُطنِ، فِلعَةٌ من الجِلدِ، رُمَّةٌ من الحَبل، فِلقَةٌ من السَّيفِ، قِصدَةٌ من الرُّمح، حُثوَةٌ من التراب، ذَرو من القَولِ، نَبذٌ من المال، هزيجٌ من اللّيل، لُمظَةٌ من الطَّعام، صُبابَةٌ من الشَّراب، مُسكَةٌ من المَعيشةِ.وأوّل مراتب الحبّ: الهَوَى، ثمّ العلاقة، وهی الحبُّ اللازم للقلب، ثمّ الكَلَف، وهو شدّة الحبّ، ثمّ العِشق، وهو اسم لما فضل عن المقدار الذی اسمه الحبّ، ثمّ الشّغفّ وهو إحراق الحُبِّ القلب مع لذّة، وكذلک اللوعة واللاعِج، فإنّ تلک حرقة الهَوَى، وهذا الهوى المُحرِقُ، ثمّ الشَّغَف، وهو أن يبلغ الحُبُّ شغاف القلب، وهی جلدة دونه، ثمّ الجَوَى، وهو الهَوَى الباطن، ثمّ التَّيم – ومنه حبيبٌ متيم – وهو أن يستعبده الحُبُّ، ثمّ التَّبل، وهو أن يسقمه الهَوَى ـ ومنه متبول ـ ثمّ التّدلّه، وهو ذهاب العقل من الهَوَى، ثمّ الهيوم، وهو أن يذهب علی وجهه، لغلبة الهَوَى عليه، ومنه رجُلٌ هائمٌ. (المصدر نفسه: ٢٣٠-٢٢٩،١٧١) هذه أجزاء يسيرة من الأمثلة، وإذا أردت أن تقف علی أكثر من ذلک فراجع «الغريب المصنف» لأبی عبيدة، و«الجمهرة» لابن دريد، و«فقه اللغة» للثعالبی، و«الفروق اللغوية» لأبی هلال العسكری، و«المزهر» للسيوطی، وغيرها من كتب الفروق. ومن هنا نعرف ما كان عليه واضعو هذه اللغة من خِصب البصيرة وقوّة البديهة وسعة التصرّف وغزارة المادّة واتساع مجال البيان، ولو عاشوا فی عصرنا هذا – كما قال البستانی – ورأوا مانراه من ينابيع المُخترعات المُتفجّرة

من صَدر العلم الفياض، فلانظنّ أنهم كانوا يقفون أمامها -كما يشاهَد اليوم فى جوانب مختلفة- وقفة الحيران وينظرون إليها كما ينظر الأبكم إلى ما حوله من المشاهد الرائعة ولاينبس ببنت شفَة، أو يعجزون عن أن يجدوا ألفاظا للملابس العصرية الّتى تلبس اليوم على الأجسام، والأطعمة الّتى تذوقها الأفواه، وإذا كانت اللغة ضاقت عن المعانى المستحدثة فأمامنا طُرق الاشتقاق ووجوه المجاز فإنها كفيلة بسدّ هذه الحاجة، ولا بأس بالنقل من اللغات الأعجمية إذا لم يحصل على الألفاظ للمعانى الحديثة الّتى لم تكن على عهد الأجداد القدماء، فإن اللغات مهما غَزُرَت مادّتها لايستغنى بعضها عن بعض، وليس فى ذلک أدنى عار. (البستانى، ١٩٩٢م: ٢٠-١٩)

عصمة الأعراب الجاهليين عن الخطأ

هل كان العرب الجاهليون فى عصمة من الخطأ؟ هذا السؤال كثيرا ما شغل بال كثير من المحققين فى عصور متمادية، فذهب الأقدمون إلى أن العرب قبل ظهور الإسلام كانوا فى عصمة من الخطأ بحيث لو قصد أن ينطق بخلاف ما طبعت عليه سليقته العربية لما طاوعت لسانه، وهو قول لايزال يقول به جمهرة اللغويين حتى فى هذا العصر الّذى هو عصر التمحيص للحقائق ونبذ كلّ ما لايقع على سداد وصواب من الآراء. ولاشک أن هذه العقيدة الّتى كادت تكون من الآيات المنزلة عند القدماء، قد ألقت على طلاب اللسان العربى عبئا فادحا، وعرّضتهم لمصاعب يشعرون بتوعرها كلّما فتحوا بابا للمناظرة فى مسألة نحوية أو لغوية، وجعلت طلاب هذا اللسان يتجشمون المشاقّ فى تعلّم قواعدها ولاسيما إذا كانوا أجانب عنها. (البستانى، ١٩٩٢: ٢٤) ولابد من الإشارة إلى أن اعتبار الجاهليين بأن كلامهم فى عصمة، مخالف للواقع عقلا وعادة، فمن ملازمات العقل البشرى أنّه لايهتدى إلى الصواب المطلق، فالإنسان محل للخطأ ما لم يكن مرتبطا بمنبع القدرة الأزلية، لكنه قد يدرک شيئا وتغيب عنه أشياء، فهناک هفوات وأغلاط صريحة عند الجاهليين لايمكن التغاضى عنها، فإذا اعتبارُ كلامهم فى عصمة، مخالف للواقع. قال ابن الفارس: «ما جعل الله الشعراء معصومين يوقون الغلط والخطأ، فما صح

من شعرهم فمقبول، وما أبته العربية فمردود.» ومن الأغلاط الّتى جرت على لسانهم، همزهم «المصائب» وهو غلط منهم، وذلک لأنهم شبهوا مصيبة بصحيفة، فلمّا همّزوا صحائف همّزوا أيضا مصائب، وليست تاء مصيبة بزائدة كياء صحيفة، لأنها عين عن واوهى العين الأصلية، وأصلها مصوبة، لأنها اسم فاعل من أصاب، وكأنه سهل لهم ذلک أنها بدل من الأصل وليس أصلا، والبدل من الأصل يشبه الزائد، ومن ذلک قولهم: رثأتُ زوجى بأبيات أى رثيت، وقول الشاعر:

ألم يأتيک والأنباء تنمى (المصدر نفسه: ۲۶،۲۴)

الخلاف بين نحويى البصرة والكوفة وتأثيره على اللغة

لقد ضاع الشئ الكثير من ألفاظ اللغة العربية، وفقد جانب كثير من قلائد شعرائها، وفرائد خطبائها، وتفکک حلقات القياس، وتفشّى الشذوذ فى أصولها وأوضاعها، واستتباب الفوضى فى مصادرها الثلاثية وجموعها المكسرة وانتشار الوهن فى لغاتها بعد أن ذهبت قبائلها فى تلک البوادى المتنامية الأطراف كلّ مذهب، وبعد أن تعاقب عليها فى صدر الإسلام من المصائب والمهالک بموت عدد عديد من رُواتها واشتغال الخلفاء الراشدين، فالأمويين بفتح البلدان، واجتياح الممالک توسيعا لدولتهم الفتية مما قضى على العرب المجاهدين بمخالطة الأعاجم من فرس، وروم، وترک، وكرد، وقبط، ونبط، وسريان، وأحباش، وغيرهم، وفسح المجال لسَرَيان الفساد فى جسم اللغة، وانتشار اللحن على ألسنة الناطقين بها. (البستانى، ۱۹۹۲م: ۲۷) ولم تكتف هذه الفجائع الساحقات حتى أنزل الدّهر بهذه اللغة ما كادت تنوء به ظهرا وتضيق به صدرا، ألا وهو العراک الشديد الّذى حميت ناره بين البصريين والكوفيين فى قرون متلاحقة مما لاتزال حتّى اليوم تقاسى برحاءه وتتجرع مرائره، ومع أنه لايمكن أن نقول إنّه ماكان لهذا العراک أية فائدة، فإنه لم يكن خالية من الفائدة بصورة كلّية، لكن قدشغل أئمة اللغة الأعلام أحقابا متتابعة لا همّ لهم إلا المناظرة العقيمة والمحاكاة التافهة والانتقادات الجارحة، فلم يأنفوا من تزييف روايات صحيحة وتصحيح روايات زائفة، بل كثيرا ما كانوا ينتحلون فى هذا

السبيل أشعارا ينسبونها إلى أحد الشعراء الجاهليين تأييدا لمذهبهم، حتّى أفسدوا اللغة بما أحدثوه من الشذوذ فيها مما يبرأ منه الواضع، وكان لكلّ فريق منهم رواته يختلقون للجاهليين والمخضرمين من الشعر ما لم يكن لهؤلاء به عهد، ولولا القرآن الكريم ومن يستنّ بسنته من المسلمين المنتشرين فى بلاد الله، لم تكن هذه اللغة قادرة على البقاء بين اللغات الحية، وكثرت الشواذ واضطربت الأصول وقلّت الضوابط وضاع القياس، فقد أضاع العلماء أوقاتهم الثمينة فيما ليس من ورائه أدنى جداء لنفوسهم وأمتهم ولغتهم بدلا من أن يصرفوها كصرف غيرهم من أبناء سائر اللغات الرّاقية، فى تعزيز العلوم العالية والفنون الجميلة والمعارف المفيدة، وقدكانوا متشاغلين عن حماية وطنهم بسبب تلك المناقشات والمنافرات الّتى لا طائل تحتها. (البستانى، ١٩٩٢م: ٢٨-٢٧) ولربما لم تكن المشاجرات الدائرة بين الفريقين خالية عن تأثير السياسة والطابع القومى، وإن ما جرى فى مسألة الزنبورية بين سيبويه والكسائى ونقله النحويون فى كتبهم تشير إلى ذلك التأثير. وكان الأنسب بهم والأليق لمصلحتهم ومصلحة أمتهم أن يتابعوا الخطة التى جرى عليها المأمون فى نقل المصنفات العلمية القيمة عن اللغات الإجنبية؛ فإن هناک علاقة بين اللغة والتفكير؛ ففى داخل كلّ لغة بشرية معينة تتبلور وتترشح أشكال معينة من التعبيرات والصياغات اللغوية، وهذه الأشكال والصياغات اللغوية إما أن تتكرر وتترشح عن طريق التعليم المدرسى أو الاسخدام اليومى من قبل أبناء اللغة الواحدة حتى تؤدّى فى النهاية إلى خلق إطار لممارسة الفكر مرتبط ارتباطا وثيقا بصيغ التعبير هذه، فلا يخرج عنها، وإذا لم يدخل أى شئ من الخارج لزعزعة هذه الصيغ التعبيرية ونفخ الروح فيها فإنها تبقى على حالها كما هى لفترة زمنية طويلة، وذلک لأنّ هذه الأشكال التعبيرية قد بلورت من قبل الجماعة القومية اللغوية استنادا إلى تجربة تاريخية تعيشها الأمّة لذاتها وبذاتها، فتنغلق اللغة على ذاتها بانغلاق الأمّة على ذاتها، وتنشأ العلاقة اليابسة القسرية بين اللغة والفكر، فإذا ضاق الفكر ضاقت اللغة، والعكس بالعكس.ومن المؤكد أنّ ما حصل للغة العربِية منذ القرن الحادى عشر والثانى عشر وحتى القرن التاسع عشر، أى طيلة ثمانية قرون، كان نوعا من التخشب والجمود فى اللغة والفكر على حد سواء،

فبعد أن حذف التعبير الفلسفى والعلمى من الدائرة اللغوية العربية وضمرت أساليب التعبير وصياغاته التجديدية فى اللغة العربية، نتج عن ذلک صعوبة التفكير فى كثير من المفاهيم والأفكار والنظريات الحديثة فى ما يختص بعلم اللغات العربية الأساسية، فنامت اللغة طويلا عن التفكير، وعندما استيقظ فى القرن التاسع عشر وجدت أنّ الفكر قطع مسافات طويلة فى اللغة الأجنبية الحديثة كالفرنسية والإنجليزية والألمانية على وجه الخصوص، ونتج عن ذلک أيضا أنا لانجد مقابلا عربيا لمصطلحات أساسية كثيرة لا بد منها من أجل التفكير بالمشاكل والظواهر المطروحة على مجتمعنا اليوم. (أركون، ۱۹۹۰م: ۳۴۳-۳۴۲) ولو انتبهوا إلى هذا الأمر لم يكن اليوم الحاجةُ إلى البحث عن أوضاع جديدة لمخترعات حديثة، ولما كانت اللغة العربية عند هذا الحد من العقم والجمود تجاه تلک المكتشفات الطريفة فى هذا العصر الّذى هو عصر التوليد والإبداع، بل ربما كانت الدول الّتى نراها اليوم متقدمة فى الصناعة والتكنولوجيا، تحتاج أن تستفيد من أوضاعها واصطلاحاتها العلمية.

النتيجة

إن بقاء الأمة ببقاء لغتها وعزتها تعود إلى عزّة أمتها، فاللغة سجل أحوال الأمّة فى الميادين المختلفة فى حياتها، ونظرا لأهمية اللغة فإن الأمم الراقية تحاول بكل الوسائل المتاحة لديها لتوسيع لغاتها ونشرها بين الأمم، وإنها وسيلة التفاهم والتعاون والتعايش بين المجتمعات الإنسانية.

تختلف النظريات حول النشأة الأولى للغة البشر وحول كونها اصطلاحا أم توقيفا، ولم تصل أصحاب تلک النظريات إلى النتيجة الحتمية حول هذا الموضوع، لذا فإن الباب مفتوح للاجتهادات والتأويلات.

إنّ اللغة العربية من بين طبقات اللغات تمتاز بكونها لغة اشتقاقية يتحول فيها الأصل الواحد إلى صيغ مختلفة، وفيها تناسب عجيب بين اللفظ والمعنى، وإن الفروق أدل شئ على اتساع هذه اللغة.

ضاع كثير من ألفاظ اللغة العربية ودخل فيها الشذوذ بموت عدد من رواتها فی صدر الإسلام واشتغال الخلفاء الراشدين فالأمويين بفتح البلدان وتوسيع الدولة الإسلامية مما أدى إلى مخالطة غير العرب بالعرب المجاهدين ففسح المجال لانتشار اللحن فيها، كما أنّ المنازعات الشديدة بين البصريين والكوفيين والّتی شغلت أئمة اللغة أحقابا، وإن لم تكن خالية من الفائدة لكن لها الأثر السلبی كذلک، لأنّ كلا الطرفين كان حريصا على تعزيز آرائه، ولم يمتنع من تزييف روايات صحيحة وتصحيح روايات زائفة فی سبيل ذلک.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

ابن منظور. ١٩٦٨م. *لسان العرب*. بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر.

ابن النديم. ١٩٧٨م. *الفهرست*. بيروت: دار المعرفة.

ابن سلام الجمحی، محمّد. ١٩١٣م. *طبقات الشعراء*. لَيدَن: مطبعة بريل.

أنيس، إبراهيم، ١٩٦٨م. *دلالة الألفاظ*. الطبعة الثانية. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

البستانی، عبد الله. ١٩٩٢م. *البستان*. الطبعة الأولى: مكتبة لبنان.

البستانی، بطرس. ١٩٨٧م. *محيط المحيط*. بيروت: مطبعة تيوبوبرس.

الثعالبی، أبومنصور. لاتا. *فقه اللغة وسرّ العربية*. قم: مؤسسة إسماعيليان.

الجزائری، نور الدين. ١٤٠٨ق. *فروق اللغات فی التمييز بين مفاد الكلمات*. حققه وشرحه محمد رضوان الداية. الطبعة الثانية. مكتب نشر الثقافة الإسلامية.

أركون، محمد. ١٩٩٠م. *ندوه ومواقف، الإسلام والحداثه*. الطبعة الأولى. دار الساقی.

زَرزور، نوال كريم. لاتا. معجم *ألفاظ القيم الأخلاقية وتطورها الدلالی بين لغة الشعر الجاهلی ولغة القرآن*. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون.

السيوطی، جلال الدين. لاتا. *المُزهر*. شرحه وضبطه وعنون موضوعاته وعلّق حواشيه محمد أحمد جاد المولی، وعلی محمد البجاوی، ومحمد أبوالفضل إبراهيم. لبنان: دار الفكر للطباعة.

الشرتونی، سعيد الخوری. ١٩٩٢م. *أقرب الموارد*. الطبعة الثانية. بيروت: لانا.

الطبری، محمد بن جرير. ١٩٥٤م. *جامع البيان عن تأويل القرآن*. الطبعة الثانية. مصر: لانا.